الفصل الأول

بحسن نية أساء إلينا القدماء

بسم الله الرحمن الرحيم

طبعاً ضايقتنى حكاية ما سمى بالآيات الشيطانية ، كما ضايقت غيرى من المسلمين . وبداية ينبغى أن أقول : إنه لا يمكن أن يكون هناك شىء يسمى آيات شيطانية ؛ لأن الآيات لا يمكن أن تكون إلا إلهية ، أما الذين ابتكروا حكاية الآيات الشيطانية فهم الذين أرادوا أن يسيئوا إلى الإسلام ، فقالوا : إن هناك آيات وصلت إلى رسول الله ﷺ من الشيطان ، والذى ضايقنى أكثر هو أننا نحن أصل حكاية تلك الجمل التى وضعها الشيطان على لسان رسول الله ﷺ ؛ لكى يقول للناس : إنها أتته من الله سبحانه وتعالى ، لكى يرضى عنه المنكرون ، فقالها ثم نبهه جبريل إلى حقيقة الأمر فنفاه .

وأصل الحكاية موجود عند أبى جعفر الطبرى ، وإنها لمصيبة أن نجد أن معظم كبار مؤرخينا كانت فيهم سذاجة جعلتهم يحكون حكايات تمس الإسلام ، وقد فعلوا ذلك عن حسن نية أو عن فرط ثقة فى الإسلام ، ولم يكونوا يتصورون

أنه سيجيء يوم يظهر فيه أعداء لدودون للإسلام من أمثال بعض المستشرقين يأخذون هذه الأخبار ويستعملونها ؛ لكى يلحقوا بالإسلام أذى شديداً . وإليك القصة كما وردت عند الطبرى ؛ لترى كيف كان هذا المؤرخ « عبيطاً » إلى درجة يتصور معها أن مثل هذا الخبر لا يمكن أن يضر الإسلام . قال أبو جعفر الطبرى (جـ٢ ص٣٣٧ وما يليها) : « فكان رسول الله ﷺ حريصاً على صلاح قومه ، محبّا مقاربتهم بما وجد إليه السبيل ، قد ذُكر أنه تمنى السبيل إلى مقاربتهم ، فكان من أمره فى ذلك ما حدثنا ابن حُمَيْد قال : حدثنا سلمة قال : حدثنى محمد بن إسحاق عن يزيد بن زياد المدنى (أو المُرى) عن محمد ابن كعب القُرظى قال : لما رأى رسول الله ﷺ تولى قومه عنه ، وشق عليه ما يرى من مباعدتهم ما جاءهم به من الله تمنى فى نفسه أن يأتيه من الله ما يقارب « أو يقرب » بينه وبين قومه ، وكان يسره مع حبه قومه وحرصه عليهم أن يلين له بعض ما قد غلظ عليه من أمرهم حتى حدث بذلك نفسه وتمناه وأحبه ، فأنزل الله عليه ﴿ وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ ۝١ مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ ۝٢ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ ﴾ فلما انتهى إلى قوله : ﴿ أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْعُزَّىٰ ۝١٩ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَىٰ ۝٢٠ ﴾ (سورةالنجم ٥٣/ ١ ـ ٢٠) ألقى الشيطان على لسانه ـ لما كان يحدث به نفسه ويتمنى أن يأتى به قومه : « تلك الغرانيق العلا ، وإن شفاعتهن لترتجى

به » . فلما سمعت بذلك قريش فرحوا وسرهم وأعجبهم ما ذكر به آلهتهم فأصاخوا له ـ والمؤمنون يصدقون نبيهم فيما جاءهم به عن ربهم ولا يتهمونه على خطأ ولا وهم ولا زلل ، فلما انتهى إلى السجدة منها وختم السورة سجد فيها فسجد المسلمون لسجود نبيهم تصديقاً لما جاء به واتباعاً لأمره ، وسجد من فى المسجد من المشركين من قريش وغيرهم ؛ لما سمعوا من ذكر آلهتهم ، فلم يبق فى المسجد مؤمن ولا كافر إلا وسجد إلا الوليد ابن المغيرة ؛ فإنه كان شيخاً كبيراً فلم يستطع السجود ، فأخذ فى يده حفنة من البطحاء فسجد عليها ، ثم تفرق الناس من المسجد وخرجت قريش وقد سرهم ما سمعوا من ذكر آلهتهم يقولون : قد ذكر محمد آلهتنا أحسن الذكر قد زعم فيما يتلو «أنها الغرانيق العلا وأن شفاعتهن لترتجى » وبلغت السجدة من بأرض الحبشة من أصحاب رسول الله ﷺ ، وقيل : أسلمت قريش ، فنهض منهم رجال وتخلف آخرون . وأتى جبريل رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ما صنعت ؟ لقد تلوت على الناس ما لم آتك به عن الله عز وجل ، وقلت ما لم يقل الله . فحزن رسول الله ﷺ عند ذلك حزناً شديداً ، وخاف من الله خوفاً كثيراً ، فأنزل الله عز وجل ـ وكان به رحيماً ـ يعزيه ويخفف عليه الأمر ويخبره أنه لم يكن قبله نبى ولا رسول (إلا) تمنى كما تمنى وإلا أحب كما أحب إلا والشيطان قد ألقى فى أمنيته كما ألقى على لسانه ﷺ فنسخ الله ما ألقى الشيطان وأحكم آياته ، أى

فإنما أنت كبعض الأنبياء والرسل ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ (سورة الحج ٢٢ / ٥٢)

فأذهب الله عن رسوله الحزن ، وآمنه من الذى كان يخاف ونسخ ما ألقى الشيطان على لسانه من ذكر آلهتهم : أنها الغرانيق العلا ، وأن شفاعتهن لترتجى . بقول الله تعالى حين ذكر اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ﴿ أَلَكُمُ الذَّكَرُ وَلَهُ الْأُنثَىٰ ﴿٢١﴾ تِلْكَ إِذًا قِسْمَةٌ ضِيزَىٰ ﴿٢٢﴾ ﴾ أى عوجاء ﴿ إِنْ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم ﴾ إلى قوله : ﴿ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴿٢٦﴾ ﴾ (سورة النجم ٥٢ / ٢١ ـ ٢٦)

أى : كيف تنفع شفاعة آلهتكم عنده ! .

فلما جاء من الله ما نسخ ما ألقى الشيطان على لسان نبيه قالت قريش : ندم محمد على ما ذكر من منزلة آلهتكم عند الله فغير ذلك وجاء بغيره . وكان ذلك الحرفان اللذان ألقى الشيطان على لسان رسوله ﷺ قد وقعا فى فم كل مشرك فازدادوا شراً إلى ما كانوا عليه وشدة على من أسلم واتبع رسول الله ﷺ منهم ... » (الطبرى تاريخ ٢ / ٣٢٨ ـ ٣٤٠) .

ولم يكتف الطبرى بذلك بل أورد نفس الحكاية فى تفسيره (جـ١٧ ص ١٣١ ـ ١٣٢ من طبعة بـولاق) ثم ردد نفس الخبر بصورة أخـرى فى نفس تاريخه (جـ٢ / ٢٣٨ ـ ٢٣٩) أى أنه ما زال يقـول ويعيد حـتى يتصور الإنسـان أن الأمر حدث كـما روى . ومن الواضح أن فى الخبر مبـالغة ، فليس هناك ما يمنع من أن يكون رسول الله ﷺ قد رجا أن ينزل الله على لسانه شيئاً يقـرب بـينه وبين الكافـرين ، وليس من الضـرورى أن يكون الرسـول ﷺ قد فكر فى ذلك ، ولكن يـستـبعـد أن يكون قد قـال هاتين الجـملتين ، بل يكفى أن تكونا قـد خطرتا ببـاله فكان ذلك سـبب تألم رسـول الله ﷺ ، خاصـة وأن الآية التى يقـال : إنهـا أكدت ذلك وهى قـوله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رَّسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّىٰ أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٢﴾ ﴾ (سورة الحج ٢٢/ ٥٢) لا يفهم منها أن الرسـول ألقى شيئاً بلسـانه ، وقد يكون الكفار هم الذين اقترحـوا ذلك وتمنى الرسول أن يرسل إليه مـا يشبه ذلك حتى لا تشتد عداوة الكفار له وللمسلمين ، خاصة وأن الضعفاء منهم كانوا قد خرجوا إلى الحبـشة . وكان رسول الله ﷺ يجتاز محنة كبرى ، ولعله تمنى أن يخـفف الله عليه من وقعها ، ولكن تكرار الطبرى إياها وإصراره عليها أمر يدل على غفلة . أما ربط ذلك بعـودة بعض مهـاجرى الحـبشـة ظنا منهم أن السلام قـد

استقر بين رسول الله والكفار فليس ضروريًا أيضاً ؛ فإن الكثيرين من مهاجرى المسلمين إلى الحبشة كانوا فى حال سيئة جداً هناك . والذى يهمنا هو أن الرسول ﷺ كان فى ظروف سيئة جداً ، وكان الكفار أقوياء جداً ، وكان المسلمون قلة ، ولكن الرسول ثبت وإن كان قد تمنى أن ينزل الله ما يمكن أن يخفف من ضغط الكفار على المسلمين ، وهذا طبيعى .

ولم يكن يخطر على بال أبى جعفر الطبرى أنه سيجىء اليوم الذى يوجد فيه أعداء للإسلام يقرءون كتابه بكل عناية باحثين عن براهين يؤكدون بها ما يزعمون من أن رسول الله قد ألف القرآن بنفسه ـ والعياذ بالله ـ وأن القرآن كله ليس من عند الله ، ولم يكونوا ليجدوا على زعمهم هذا دليلاً هوأنصع من هذا الذى أتاهم به الطبرى بصورة هى الغاية فى الوضوح . وبالفعل نجد أن المستشرقين من أوائل هذا القرن يقفون أمام خبر الطبرى هذا ويتعلقون به ، ويعيدون ويزيدون زاعمين ما يريدون مما لا يمكن أن يكون صواباً كما رأينا . والسبب فى ذلك هو أن النصارى ليس عندهم ما يشبه القرآن ، أى ليس بين أيديهم الكتاب الذى أوحاه الله إلى عيسى ـ عليه السلام ـ فقد ضاع الأصل بمضى الزمن ، ولم تبق إلا تلك الأخبار والكلمات الواردة عن عيسى ـ عليه السلام ـ فى الأناجيل ، وهى فى مجموعها ـ سواء فى العهد القديم أو العهد الجديد ـ تشبه ما لدينا من الآثار والأحاديث النبوية ، ولا تزيد على ذلك .

وهذا الكلام هو الذى استند إليه ذلك الهندي الذى كان مسلماً ، ثم كفر وألف تلك الرواية الهزيلة التى سماها « الآيات الشيطانية » وكل ما فيها هراء وعدوان على الإسلام ورسوله الكريم ، وقد فعل ذلك وهو يعرف أن المتعصبين من النصارى سيقبلون على مثل هذا الكلام وسيذيع كتابه ويكسب الألوف ، أى أنه باع دينه بالمال . وعندما نشر هذا الكتاب لم يهتم به الناس لسخافته ، ولكن تصدى الخمينى له وحكمه بالإعدام على مؤلفه شهره وزاد إقبال الناس عليه . وتعلق أولئك الناس بالقول بأن كل كاتب حر فى أن يقول ما يريد ، وإذا أردت أن تنقض ما فيه فألف كتاباً فى ذلك ، وهذا طبعاً كلام فارغ ، ولكن الخمينى كان سبباً فى شهرة ذلك الرجل وذيوع كتابه ، فقد اشتهر الرجل وأصبح رمزاً على حرية الفكر ، وما هو فى الحقيقة إلا صعلوك شرير ، ولكننا نعيش فى عصر مضطرب حافل بالشرور ، والإسلام يخوض فيه معركة مع أعدائه ، ولكننا لا نستطيع أن نخوض هذه المعركة بالحكم على مثل هذا الرجل بالإعدام ، بل يكون الأمر بالعقل والهدوء حتى لا نعطى أعداء الإسلام سلاحاً فى يدهم .

المهم أنه لولا أن الطبرى قد نشر هذا الخبر بذلك الإلحاح لما وجد أعداء الإسلام ذلك السبيل إلى النيل منه ، وقد رأينا أنه خبر ليس من الضرورى أن يكون صحيحاً ؛ فهو ملىء بنواحى الضعف ، ولكن كان أحسن لو أن الطبرى لم ينشره ، خاصة

وهو ليس أساسيًا بالنسبة للسيرة النبوية ، وهذا هو الذى أريد أن أقوله فى هذه السلسلة من المقالات ، فإن كتبنا القديمة حافلة بأخبار مثل هذه تسىء إلينا ، ولست أريد بذلك أن نراجع هذه الكتب لنشطب منها هذه الأخبار والإشارات ؛ فليس من رأيى أن نمس النصوص ، بل يكفى أن نحذر من مثل هذا الخبر إذا نحن نشرنا الطبرى أو غيره ، ونؤكد للناس أنها أخبار غير صحيحة، ونقدم لهم اسباب آرائنا ؛ لكى نحمى الإسلام من أعدائه ؛ لأننا نعيش فى عصر خطر يتصارع فيه الإسلام مع أعدائه والقدامى كانت فيهم سذاجة وثقة فى النفس تجعلهم يرددون كل ما يصل إليهم من الأخبار دون بعد نظر .

والطبرى نفسه يورد فى تفسيره خبراً آخر ما كان أغناه عن ذكره ، ولكنه كان رجلاً راوية يروى ما يصله من الأخبار دون نظر إلى النتائج ودون أن يحقق ما يروى . والخبر خاص بزواج رسول الله ﷺ من زينب بنت جحش ابنة عمته ، ونحن نعرف أن أعداء الإسلام من المستشرقين وغيرهم لا يزالون يتحدثون عن زيجات الرسول ﷺ وكأنهم يرون فى تعدد هذه الزيجات عيباً أو مأخذاً على الرسول ، ولا عيب هناك ولا مأخذ ؛ لأن رسول الله ﷺ والمسلمين من حوله كانوا يرون ألا ينبغى أن تظل امرأة دون زواج صيانة لها ، فإذا بلغت البنت سن الرشد كان على الأب أن يبحث لها عن زوج ، ورسول الله ﷺ نفسه كان يكره أن تظل بناته دون زواج ، فعندما ترك المشركون بنات

الرسول ـ كان اثنتان منهن قد خُطِبَتَا : رقية وأم كلثوم ـ تحدث الرسول إلى أبى بكر ثم عمر فى زواج أم كلثوم ، فلما اعتذرا عرضها على عثمان فتزوجها ، وعندما ماتت أم كلثوم زَوَّجَهُ الرسول من ابنته الأخرى وهى رقية ، وعندما ترك عبيد الله بن جحش الإسلام فى الحبشة تطلقت منه زوجته أم حبيبة بنت أبى سفيان ؛ لأنه ترك الإسلام ، فكان الرسول ﷺ هو الذى تزوج أم حبيبة ـ تزوجها دون أن يراها ، إذ كانت هى فى الحبشة وهو فى مكة ، ولكن رسول الله ﷺ كره أن تظل أم حبيبة دون زوج ، فكتب إلى النجاشى أن يكون وكيله فى الزواج منها ، فتزوجها رسول الله بوكالة النجاشى . وهكذا كان الموضوع تقليداً اجتماعيًا لا تظل المرأة فى سن الزواج دون زوج ، وكانت هذه هى المشكلة التى جعلت رسول الله ﷺ يتزوج زينب بنت جحش وهى ابنة عمته ، وسآتيك بالخبر كما رواه الطبرى فى تفسيره (جـ٢٢ ص٢٠ ـ ٢١ من طبعة بولاق) لترى سذاجة الطبرى وكيف أنه أساء إلينا بالطريقة التى روى بها الخبر والأسلوب الذى حكاه به .

قال : حدثنى يونس بن عبد الأعلى ، قال : أخبرنا ابن وهب قال : قال ابن زيد : كان النبى ﷺ قد زوج زيد بن حارثة زينب بنت جحش ابنة عمته ، فخرج رسول الله ﷺ يوماً يريده ، وعلى الباب ستر من شعر ، فرفعت الريح الستر فانكشف وهى فى حجرتها حاسرة ، فوقع إعجابها فى قلب النبى ﷺ ، فلما وقع

ذلك كُرِّهت إلى الآخر ، قال : فجاء فقال : يا رسول الله ، إنى أريد أن أفارق صاحبتى ، فقال : مالك ؟ أرابك منها شئ ؟ قال : لا والله يا رسول الله ، ما رابنى منها شيء ولا رأيت ضرّا ، فقال له رسول الله ﷺ : أمسك عليك زوجك واتق الله ، فذلك قول الله عز وجل : ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ ﴾ ، أى : تخفى فى نفسك أنه إن فارقها هو تزوجتها أنت .

وبقية الخبر معروفة ، فقد طلق زيد بن حارثة زينب بنت جحش ، فزوجها الله سبحانه من محمد ﷺ من السماء . ورواية الطبرى للخبر على هذه الصورة تلقى شكّا كبيراً على طبيعة رسول الله ﷺ . وأعداء الإسلام معذورون إذا هم رأوا هنا قصة حب ؛ لأن أسلوب الطبرى نفسه مفضوح جدّا ، وكأنه يظن حقّا أن رسول الله ﷺ قد وقع فى حب زينب بنت جحش عندما رآها فى ثوب خفيف فى بيتها فمالت نفسه إلى الزواج منها ، فزال من قلبها كل حب لزوجها زيد بن حارثة ولم يعد له مفر من طلاقها ثم كان الله نفسه هو الذى زوجها من محمد رسول الله ﷺ

والقصة تختلف تماماً عما ظن الطبرى ، ونحن نخطئ عندما نظن أن الطبرى وأمثاله كانوا يعرفون من أسرار تاريخ الإسلام ما لا نعرف ، والحقيقة أننا نعلم . وإليك القصة كما وقعت؛

لتعلم أن رسول الله ﷺ أبعد ما يكون عن مظنة الحب والجنس في هذه المناسبة .

فقد كانت زينب بنت جحش ابنة عمته ، وقد تربيا معا في بيت واحد ، فهو يعرفها تمام المعرفة ، ولم يكن بحاجة إلى أن يراها في ثوب خفيف لكي يقع في حبها ، فإن زينب لم تكن جميلة ، ولم يكن في جسمها ما يفتن ، فقد كانت قصيرة القامة ، ثم إنها كانت مريضة ؛ فهي التي يقال : إنها كانت تستحاض ، ومعنى ذلك أن الدم يسيل منها دائماً لا في المناسبة الشهرية فحسب ... ولكنها كانت من بيت شريف ، فإن أختها حمنة تزوجت مصعب بن عمير الصحابي الشهير ، فلما قتل عنها يوم أحد تزوجت طلحة بن عبيد الله ، فولدت له محمداً وعمر ابني طلحة ، وكان رسول الله ﷺ يحب زيد بن حارثة مولاه ، ويريد أن يرفع مكانته ، فزوجه زينب بنت جحش ، فساءها ذلك ؛ لأنه مولى ، ثم إنه كان قبيح الوجه ؛ فقد كان شديد السمرة ، وكان أفطس الأنف ، وفوق ذلك كله كان مزواجاً لا يفتأ يتزوج ويطلق، فنفرت منه زينب نفوراً شديداً ، وشكت ذلك إلى رسول الله ﷺ وأخذت تسيء معاملة زيد بن حارثة ، فكان يشكو إلى رسول الله ﷺ ويقول له : إني أريد طلاق زينب ، فيقول له رسول الله ﷺ : أمسك عليك زوجك واتق الله ، وأحس رسول الله ﷺ أن زينب ظلمت في هذا الزواج ؛ لأن زيد بن حارثة ليس لها بأهل ، وتألم في نفسه ، ولكنه أخفى ما في نفسه ؛ لأنه كان يحب زيداً ، وكان بقية الصحابة لا يحبون زيد بن حارثة ؛ لأن

رسول الله ﷺ كان يحبه ويجعله على رأس القيادات العسكرية حتى ولاه قيادة ست سرايا متوالية ، وأخيراً وجد رسول الله ﷺ أنه لم يعد هناك مفر من تطليق زيد من زينب ، وأنه لا يستطيع أن يستمر فى كتمان ما فى نفسه من هذه الناحية ، وأذنَ الله ـ سبحانه ـ له فى أن يطلقها منه ، وتم ذلك ، وأراد الله ـ سبحانه ـ أن يعوض زينب عما لقيت من المهانة من زواجها من زيد ، فزوجها من رسول الله ﷺ ؛ ليرتفع مكانها ، وكانت زينب هى المرأة الوحيدة التى زوجها الله ـ سبحانه وتعالى ـ مباشرة من السماء دون عقد من بشر .

تلك هى القصة ، فلا حب هناك ولا فتنة بجنس ، وإنما حكاية إنسانية عادية يشرف بها رسول الله ﷺ ولا تمسه إطلاقاً. ثم إن الرسول ﷺ بعد أن تزوج زينب لم يظهر نحوها أى ميل أو حب خاص ، إنما هى أسعدها أن ترتد إليها مكانتها ، فانصرفت إلى الإحسان وأعمال التقى ، وكانت تفخر على بقية زوجات الرسول ، وتقول : زوجنى الله من السماء . وأولم عليها رسول الله ﷺ بخبز ولحم ، وقال ابن سعد في طبقاته (٨/ ٧٥): كانت زينب كثيرة الخير والصدقة ، ولما دخلت على رسول الله ﷺ كان اسمها برة ، فسماها زينب ، وتكلم المنافقون فى ذلك ، وقالوا : إن محمداً يحرم نكاح نساء الأولاد ، وقد تزوج امرأة ابنه زيد ؛ لأنه كان يقال له : زيد بن محمد ، قال الله تعالى : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ ﴾ (الأحزاب ٣٣/ ٤٠) وقال: ﴿ ادْعُوهُمْ لآبَائِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ اللَّهِ ﴾ .